متاعب

منشؤها الذوق العام

للاستاذ محمد عيسى

فى هـذا المقال أعرض ألوانا من المتاعب ، هى نماذج ممـا يثير الشكوى فى مجالس المستنيرين ، كلما عرضت مناسبة للكلام على الذوق العام فى بلادنا .

وأعنى بالذوق العام مظهر الصـفات المشتركة بين أفراد الشعب أو أكثرهم ، وهو كذلك مصدر العادات التى تبدو آثارها فى الطرق والمجتمعات دون أن يثير ظهورها إنكارا عاما ، لأن شيوعها بين الكثرة من أفراد الشعب هوّن من شأنها ، ولأن طول تكرارها أنشأ بينها و بين النفوس نوعا من الإلف ، ومع الإلف والاعتياد يبطل العجب و يضعف الانتقاد.

إذا ألف الشيء استهان به الفتى ... فلم يره بؤسى تعـد ولا نعمى
كانفاقه من عمره ومساغه ... من الريق عذبا لا يحس له طعما

والذوق العام فى كل أمة هو مناط الحكم لها أو عليها ، فاذا كان متجها نحو الحق والخير والجمال ، حكم للأمة بسلامة الفطرة ، و إلا فهى منحرفة المزاج ، وهى فى حاجة إلى العلاج.

أذكر أن شاعرا من أكبر شـعراء الشرق المعاصرين ، قدّر له أن يزور بعض مدن أوربا فراعه ما رأى من نظافة الطرق هناك ، فترجم عن ذلك بقوله :

ولع القوم بالنظـافة حتى ... جن فيها غنيهم والفقير
فاذا سرت فى الطريق نهارا ... خلت أنى على المرايا أسـير

فانظر كيف حكم للأمة كلها بالنظافة ، قياسا على نظافة الشوارع ، وهو فى حكمه هذا عادل ، لأن الطرق مسالك المنازل ، ومدارج السابلة ، ومعابر الغـادين والرائحين من شتى الطبقات ، فاذا كانت مع ذلك نقية الديباجة ، صافية الأديم كالمرايا ، فهذا دليل أصدق دليل على أن المـارين بها والمطلين عليها قوم طبعوا على النظافة ، بآية أن هؤلاء وأولئك لم يلوثوها بأقدامهم ، ولم يشوهوها بفضلات طعامهم ؛ و إذا كان هذا حظ الشوارع وهى ماهى من النظافة ؛ فكم يكون حظ المساكن وماتحتوى من طعام وشراب وماعون وأثاث؟

فالذوق العام الذى تتجلى آثاره فى الطرق والمراكب العامـة ، وأماكن الاجتماع ، هو عنوان الأمة ، ومقياس حظها من الرفعة أو الضعة ، فى حكم الأجنبى عنها .

فاذا ما وجدنى القارئ لهذه الكلمات معنيا بنقد بعض الهنات التى نلاحظها فى مجتمعنا فلا يستحقرن شأنها ، ولا يستخفن بقيمتها ، فانها مرآة ذوقنا ، ومقياس مزاجنا ، والميزان

الذى ينصبه الأجنبى عنا حين يريد أن يوفينا حقنا من المدح أو القدح، وهى بعد ذلك وقبله، ذات أثر فى حياتنا اليومية، بما ينجم عن بعضها من أضرار مادية، أقلها تضييع أوقاتنا وتعطيل اعمالنا، ثم هى على كل حال مما يشوه جمال مجتمعنا، ويحيف من استمتاعنا بمسرات الحياة.

هأنذا غادرت منزلى فى الصباح غاديا الى عملى، وهأنذا أتهيأ لعبور شطر الشارع إلى أصل الى محطة الترام، فأتلبث قليلا على الطوار ريثما يخلو الطريق من السيارات، واذا شئ يهبط على كتفى ثم يتردى على الأرض، فأتبعه بصرى، فاذا هو بقية سيجارة لا يزال بها وميض نار يصاعد منها دخان.

لم يداخلنى الشك فى أن الذى ألقى بعقب السيجارة على كتفى مواطن محترم، لأنه يسكن فى عمارة عالية من ذوات الأجور الغالية، ولأن عقب السيجارة الذى ألقاه علىّ من نوع غير رخيص، ولكن الذى شككت فيه أنه مواطن طيب، ومالى لا أقول إنه مواطن متعب؟

لا أزعم أنه تعمد إحراق أو ايذائى، فلعله لم يرنى، ولعله لو رآنى ما رمانى، فليس بينى وبينه — على الأرجح — من ذات الضغن ما يطوع له أن يتخذ من جسمى هدفا لرميته، أو من ثوبى مطرحا لسيجارته، ولكنه مع ذلك مواطن متعب، لأنه أزعجنى بالمفاجأة، ولأنه أشعرنى الخوف على جسمى وثيابى، ولأنه شغلنى بذلك وقتا أضعته فى تحسس أعضائى، وتلمس أثوابى، ولأنه صرفنى بما شغلنى عن الترام يصل الى المحطة ويغادرها، فعاقنى عن إدراكه، وأخرنى عن موعد حضورى الى عملى، وعرضنى بذلك لما يتعرض له المتأخرون عن مواعيد أعمالهم.

قصصت هذه الحادثة فى مجلس من مجالس إخوانى، فانبرى أحدهم يغبطنى على نتيجتها ويتمنى أن لو كان حظه فى مثل هذه الحادثة كحظى، فقد وقع له مثل ما وقع لى، غير أن بقية السيجارة ألقيت على شرفة مسكنه بيد جار له يسكن فى طبقة تعلوه، وقد أصابت نارها بعض الأثاث فاحترق، ولولا أن تداركه الله برحمته فتنبه للنار قبل أن يمتد لسانها، لتناولت مسكنه وسائر المنزل، ولوقعت الكارثة ولكن الله سلم.

وكثيرا ما تشب النار فى القرى فتودى بالأرواح، وتأتى على المساكن، وتذهب بالأقوات، لأن قروية ذهبت تقبس جذوة نار من بيت جارتها على عادة القرويات فى ذلك، ثم اتخذت سبيلها على السطوح حيث الحطب يملأ كل مكان، وحيث الريح تذكى النار وتطير شررها كل مطار.

فاذا نحن تدبرنا هذه الحوادث بل الكوارث المتشابهة واعتبرناها بما أذاعته مصلحة الاحصاء أخيرا من أن الحرائق التى شبت فى مصر سنة ١٩٣٩ بلغت ٣٨٩٠ حريقا منها ٢١٢٢ حريقا نشأت عن تطاير الشرر وأعقاب السجاير — اذا نحن تدبرنا ذلك واعتبرناه بهذا جاز لنا أن نقول إننا معاشر المصريين، على تباين البيئات فى المدائن والقرى، وعلى اختلاف الدرجات فى الغنى والفقر، تصدر عن ذوق عام واحد، هو ضعف الاحساس بالمجتمع.

فهذا الذى يقذف بأعقاب السجائر فى شارع يموج بالمارة، وذاك الذى يلقى بها فى جوف منزل مؤثث مسكون، وتلك التى تخوض بالنار المشتعلة عبابا من الحطب الجزل، هؤلاء جميعا ضعاف الأحساس بما حولهم من المخلوقات حتى ما يفرضون لها وجودا ولا يعرفون لها حقا.

وإلى هذا الضعف، ضعف الاحساس بما يحيط بنا، والاستخفاف بحقوق غيرنا من اخواننا فى المجتمع، نستطيع أن نرد كل ما نسمع ونرى فى الطرق والمراكب والمحافل، مما تضيق به الصدور، أو كما يقول المتنبى: مما يشق على الأسماع والحدق.

كان الله فى عون الذين يسيرون على أقدامهم فى مدينة القاهرة: إنهم لا ينبغى لهم أن يسيروا إلا على حيد الشارع أى على الطوار، ما داموا يرغبون فى الحياة ويزهدون فى الانتحار، ولكن الطوار كثيرا ما يكون محجوزا، لأن ثلة "أو شلة" من الشبان يمشون على افريز الشارع مشتبكى الأذرع متلاحمى الأكتاف، مقيمين بهذه الأذرع المتشابكة والأكتاف المتلاحمة جدارا آدميا يعترض الطوار ويعوق المارة، فاذا قدر لك أن تكون خلفهم، كان لزاما عليك أن تلقى بزمامك اليهم، وتقيس خطواتك على خطواتهم، وتقدر سيرك بسيرهم، وهؤلاء عادة يسيرون الهوينى، لأنهم لا يحدوهم غرض ولا تسوقهم غاية وإنما يمشون سبهللا، بل عليك مع ذلك أن تقف كلما وقفوا، وكثيرا ما يقف هؤلاء، لأن أحدهم وصل من حديثه إلى نقطة يجب الوقوف عندها احتفالا بالاصغاء اليها، أو لأن أحدهم صدرت عنه نكتة يتقاضاهم الاعجاب بها أن يضحكوا وأن يغرقوا فى الضحك حتى يميلوا برؤوسهم، ويفحصوا الأرض بأقدامهم.

أما اذا كنت تسير بحيث تقابلهم، فأنت مضطر أن تحلى لهم الطريق، وتتخلى عن الطوار، وأن تنزل إلى عمار الشارع متعرضا لما فيه من الأخطار.

أنا لا أعتقد أن هؤلاء الذين يسيرون صفا واحدا يشغل الطوار كله يزعمون أن هذا الطريق ملك لهم دون غيرهم من المارة، ولكنى أتصورهم قوما لم يرزقوا من دقة الحس ولطف الشعور ما يخطر ببالهم أن الطريق مسلك لغيرهم ممن يتقلبون فى حوائجهم، ومن تقتضيهم تكاليف الحياة أن يمضوا إلى حاجاتهم سراعا، وأن من بين هؤلاء الشيوخ الضعفاء والعمال المكدودين، والمرضى والمتألمين، وحاملى الأثقال، ممن يطالبنا الذوق السليم أن نحترم ضعفهم، ونفسح الطريق لهم.

كان نابليون بونابرت يسير يوما على إفريز بعض الشوارع فى باريس وفى صحبته احدى السيدات، فقابلهما حمال ينوء به حمله، فلما أن صار منهما على مقربة وقفت السيدة معترضة سبيله كأنما تطالبه بالانحراف واخلاء الطريق، صادرة فى ذلك عن شعور الإدلال بمركزها الاجتماعى، والخيلاء بصحبة نابليون العظيم، وما لاحظ نابليون ذلك حتى أسرع إلى السيدة يجذبها من ذراعها ويحيها عن طريق الحمال قائلا: احترمى الحمل ياسيدتى.

وكما لا يفكر السائرون على الطوار كتفا لكتف وذراعا فى ذراع فيمن خلفهم ولا فيمن يقابلهم من المارة، كذلك لا يفكر الآكلون فى الطريق، وكثيرما هم، فيما عسى أن يتعرض له الناس من الأذى بسبب ما يأكلون .

كل الذين يأكلون ويلقون بفضلات ما يتناولون فى الطريق يأثمون فى حق المجتمع ، لأنهم يلوثون الطرق ويستجمعون الذباب، ويخلون بواجب النظافة ، ويعرضون مواطنيهم لما عسى أن ينجم عن ذلك من الأمراض، ولكن أكثرهم إثما وأشدهم أذى أولئك الذين يأكلون الموز ويلقون بقشوره فى الطريق يزلقونها ويعرضون السابلة للوقوع . وما أذكر أن قدمى زلت مرة فتبينت السبب الا وجدته قشرة موز ، حتى صرت أذم الموز لطول ما لاقيت من شره ، وأعاف لبابه كراهية فى قشره .

أما الذين يمتصون رحيق القصب فى الشوارع فبحسبى أن أقص على القراء قصة أحدهم :

كنت أسير ذات يوم فى بعض الطرق ، وأمامى فتى لا بأس بهندامه يحمل بجانبه عودا طويلا من قصب السكر يمسكه بيد ويكسر بالأخرى أنابيبه فيمتص رحيقها، ويلقى بقشورها وحثالتها على الأرض . وكان كلما فرغ من أنبوب وأخذ فى كسر غيره ، تحرك العود فى يديه ذات اليمين وذات الشمال ، فرأيت أخذا بالحيطة وتحريا للسلامة أن أجعل بينى وبينه مسافة مقدورة، وأن أكون منه بعيدا حتى لا يناثنى منه أذى إذا ما تحرك ذلك العود أو ذلك الرمح فى يديه ، غير أن الحذر لا ينجى من القدر ، فقد بلغ الفتى وهو يكسر الأنابيب أنبوبا غمزه بيديه فوجده صلب المكسر ، وحاول كسره على طريقته فاستعصى عليه ، وبشاء الله أن يكون الفتى حاضر البديهة، وأن يكون قد وصل فى سيره إلى جانب عمود من أعمدة الكهرباء ، وفى مثل كرة الطرف لوح بالعود فى الهواء ، وأهوى به على العمود ، فندّ عنه الأنبوب كما يندّ السهم عن القوس ووقع فى صدرى ، فصحت فزعا : ما هذا ؟ فالتفت إلىّ مبتسما وقال : إنها "عقلة مسوسة" . لم أراجعه القول فما يكون لى أن أحاوره بعد ما بدا لى من جوابه أنه يعدّنى مسئولا عن السوس يصيب القصب ، على أنه لم يدعنى وشأنى بل أنشأ يقنعنى بأن ما فعله هو أمثل الطرق فى كسر القصب المسوّس ، ولم أجد وسيلة إلى الخلاص منه إلا التظاهر بالاقتناع ، والتصريح بأن ما فعل هو الطريقة الجديرة بالاتباع .

ذلك بعض ما يتعرض له المارّة فى شوارع القاهرة ، وهو كما يقول الكتاب غيض من فيض مما لقيت وما يلقاه أمثالى من الذين تلجئهم ضرورات الحياة إلى السير فى هذا البلد على الأقدام ، متحملين — ولا ذنب لهم — تبعات الذوق العام ما

محمد عيسى